التفاهم

الاستشراف.. الحاجة والمعوّقات

ابتهاج يونس

«المستقبل.. المجهول.. المصير» هواجس غلبت الإنسان على أفكاره وطقوسه وحياته اليومية، حيث برزت في ألح نشاطاته كادخار الطعام والبناء والعمران، بل يعد «الإنجاب» و«الزراعة» هي أقوى مؤشر للحس المستقبلي للإنسان من الناحية الحياتية. ناهيك عن «الكهانة» والتيمورست بها طقوس توضح مدى احتراس الإنسان من المستقبل، فقد نشأت الأديان والكهانة لأجل إرخاء هواجس المصير والإجابة بتطلعات وتنبؤات تطمئن الإنسان ليستمر بحياته. وفي مجال السياسة استخدم الملوك والسلاطين العرافين والكهنة لأجل معرفة الغد، فقد ارتبطت بغريزة «التملك» و«تعزيز الاستحواذ»، وتعج صفحات الكتب التاريخية والكشوفات الأثرية بالخرافات والأساطير على ذلك.

يشير الكاتب وليد عبدالحي في مقالة عن «الدراسات المستقبلية: النشأة والتطور والاهمية» إلى ارتباط الإرهاصات الأولية لعلم «الاستشراف» أو «علم المستقبل» بعنصر «الزمن» وعلاقة الإنسان به، فلا يمكن سلخ الإنسان عنه. فقد شغلت هذه القضية عقول الفلاسفة والمفكرين منذ الأزل، فقد نظر البعض منهم – من بارمينيدس إلى كانت- أن الزمن منفصل وسابق للظواهر مما يترتب عليه الثبات والاستمرار، فهو ليس مفهومًا واقعيًا ميدانيًا بقدر ما هو مجرد ونظري، وغالبًا ما يرتبط بالحركة، فهو كما يراه جون لوك «التغير الكمي للأحداث».

ظل هذا المفهوم سائدًا إلى عصر الحداثة إلى أن نبّه فيشنر أن الزمن نسبي في مناطق العالم ولا يحكم بنفس المقياس، فمثلا في الدول النامية كمية الأحداث أقل من الدول المتقدمة، فبالتالي لزم على علم الاستشراف أن يدرك وتيرة الحركة وإيقاعها.

أولا: التعريف:

من العناصر الأخرى التي يمكن أن نربطها بالاستشراف هي: «الزمن» كما ذكر سابقا، و«الحركة»، و«الاتجاهات»، و«العلاقات»، و«الإمكانات»، و«الخيال». فهي من أهم مكونات مفهوم الاستشراف لدى غالبية الباحثين على مر العصور، واختلاف المدارس العلمية، وهنا نستعرض بعض التعاريف لعلم المستقبل:

١- ذكر الاستشراف لغة في معجم اللسان: «وتشرف الشيء واستشرفه: وضع يده على حاجبه كالذي يستظل من الشمس حتى يبصره ويستبينه»، ومنها يعني: «الاستشراف في لغة العرب تحديد النظر إلى الشيء بشكل يجعل الناظر أقوى على إدراكه واستبانه، كأن يبسط الكف فوق الحاجب كالمستظل من الشمس، أو ينظر إليه من شرفة أو مكان مرتفع، أو يمد عنقه ويسدد بصره نحوه، كل ذلك يفعله للإحاطة بشكل الشيء والتدقيق على ماهيته»، (محمد بريش، الاستشراف: المفهوم).

٢- يستخدم الخبراء الفرنسيون مصطلح المستقبلية أو التوقع أو التخطيط، فهو مرتبط بالتحليل الشامل وصناعة الاستراتيجيات للجوانب الاجتماعية والثقافية والبيئية والتكنولوجية، مع التركيز على العوامل الداخلية، وذلك باستخدام الفرضيات المتماسكة والمحتملة للغد - بناء على سيرورة الماضي إلى الحاضر والإمكانات المتاحة. (محمد بريش، المنهج في استشراف المستقبل: عودة إلى المفهوم).

٣- «العلم الذي يرصد التغير في ظاهرة معينة، ويسعى لتحديد الاحتمالات المختلفة لتطورها في المستقبل، وتوصيف ما يساعد على ترجيح احتمال على غيره، وعلى هذا الأساس تتباين الدراسة المستقبلية عن الدراسة الاستراتيجية، فالثانية تقوم على هدف يكون قد حدد سابقا ثم البحث عن أدوات تحقيق هذا الهدف، بينما تسعى الدراسة المستقبلية لاستعراض الاحتمالات المختلفة للظاهرة. كما تختلف الدراسة المستقبلية عن التنبؤ. في الأخير يحسم أن الظاهرة ستتخذ مسارا معينا، بينما لا تزعم الدراسة المستقبلية مثل ذلك أبدا»، (وليد عبدالحي، الدراسات المستقبلية النشأة والتطور والأهمية).

٤- يميل علم المستقبل ليكون فرعًا من علم الاجتماع أكثر من علم الاجتماع التاريخي، حيث يصنف على أنه نوع من الخيال الاجتماعي الذي يناقش التطورات المستقبلية الفعلية، ويستهدف تعيين مدى الاحتمال الرياضي لوقوعها وقابليتها للتصديق، على عكس علم الاجتماع التاريخي الذي يؤكد النبوءات الظنية بالنسبة للماضي»، وتتداخل في علوم كثيرة في رسم احتمالات المستقبل منها الجغرافيا والعلوم الطبيعية والسياسة والاقتصاد والتاريخ والتكنولوجيا...إلخ.

٥- يعتمد علم المستقبل على أبعاد ثلاثة لمسار الظواهر: الممكن، والمحتمل، والمفضل. ويركز على ثلاثة أبعاد زمانية تكون في متناول النقاش: الماضي، الحاضر، المستقبل، وينقسم المستقبل إلى المستقبل المباشر: ويمتد لعامين، والمستقبل القريب: ويمتد من عامين إلى خمسة، والمستقبل المتوسط: ويمتد من ٥- ٢٠ عاما، والمستقبل البعيد: ومدته بين ٢٠ – ٥٠ عاما، والمستقبل غير المنظور: أكثر من ٥٠ عاما.

٦- يرى الباحث جوفونيل أن هناك ثلاثة جوانب للدراسات المستقبلية: أ- الاتجاهات السائدة لظاهرة معينة. ب- سرعة الاتجاهات: بمعنى قياس كمية التغير في ظاهرة معينة خلال زمن معين من ناحية، والتسارع في هذا التغير، وهو الأمر الذي تطور في الدراسات المستقبلية باستخدام قوانين رياضية للتسارع ودمجها في التحليل. ج- العلاقة بين الظواهر: يقوم على إدراك التفاعل المتبادل بين الظواهر مهما بدت غير مترابطة ورفض المنهج التجزيئي والتركيز على المنهج الكلي وهو المنهج الذي يعني أن الكل أكبر من مجموع أجزائه.

ثانيا: نشأة العلم:

١- مرحلة اليوتوبيا أو النماذج المثالية: والتي تفيد – كما أشار لها الباحث وليد عبدالحي – بأنه تخيل بنيات وأنساق اجتماعية قادرة على حل مشكلات الواقع المعاش دون أن يكون هناك مؤشرات كافية على إمكان تحققها، ومثال عليها: جمهورية أفلاطون، ونموذج أوغسطين الذي يمثل صراع بين مدينة الله ومدينة الإنسان، ونموذج فرانسيس بيكون «أطلنطا» الجديدة القائمة على العظمة الإنسانية، ونموذج توماس مور في مجتمع قائم على الملكية الجماعية، كذلك نموذج «المادية التاريخية» لكارل ماركس.

٢- مرحلة التخطيط: وهي مرحلة تجاوزت التنظير لتبدأ بدراسة المجتمع دراسة مختصة تناسب خصوصياته؛ ليتم بعد ذلك إعداد الخطة اللازمة لتغييره، وهي تتجسد بالخطط التنموية والاستراتيجيات، مثل خطط تمديد الكهرباء، وقوانين الحرية التقنية... إلخ.

ويجدر بنا أن نذكر هنا الجهود البحثية لدى بعض الدول في مجال المستقبل التي أدت إلى الحث على إنشاء وزارة للمستقبل في بريطانيا، وإصدار مجلات خاصة بشأن الاستشراف، مثلا: مجلة الغد ١٩٣٨، وكذلك إنشاء المركز الدولي للاستشراف في ١٩٥٧. وقد برز من العلماء سمركز بيرغر وجوفونيل، والأخير أنشأ مشروع المستقبلات الممكنة الذي يرى فيه أنّ المستقبل ليس قدرا بل هو مجال لممارسة الحرية من خلال التدخل الواعي في بنية الواقع باتجاه «المفضل».

٣- مرحلة العالمية: وهو التحوّل من الاهتمام المحلي الإقليمي إلى تصور بنية العالم ككل، وقد شملت موضوعات أكبر مثل أسلحة الدمار الشامل والإرهاب وحقوق الإنسان ومشكلات البيئة والزيادة السكانية واستنزاف الموارد الطبيعية وغيرها.

ثالثا: نظرة كوندرسيه في تطور اتجاهات الدراسات المستقبلية:

يعد كوندرسيه أول عالم حاول منهجة علم المستقبل، وقد رأى أن دراسات المستقبل بدأت بمنهج الإسقاط والحدس والمنظور التجزيئي. وبعدها تحولت للمناهج الكمية والاستقرائية والرياضية بالدواليب والسيناريوهات ونظرية الاحتمالات والثلاثيات والمسافة واللعب والمحاكاة ... الخ. وأخيرا الميل التدريجي نحو المنظور الكلي، ومنها نتج التحول من مفهوم القوة على أساس الكم إلى القوة على أساس النتيجة، والتحول من مفهوم القوى إلى الترابط.

رابعا: وظائف دراسات الاستشراف:

١-التنمية بكافة قطاعاتها، وذلك بتحديد اتجاهات التفاعل لتحديد الاحتمالات المستقبلية، وتوظيف الإمكانات نحو تحقيق «المفضل» والتحرز من غير المرغوب.

٢- وظيفة بيداغوجية في بناء الصورة الذهنية للعالم، وأدلجته عن طريق التأثير على اللاوعي بالإعلام والتعليم، وذلك لترسيخ صورة المستقبل الذي تريده السياسة، وبناء التوجهات على غرارها.

٣- تصنيف العالم جغرافيا وسياسيا وحضاريا، وتحديد المكانة الدولية لها وذلك بدراسة التفاعل بين الأقاليم والتأثير المتبادل بينها، وتحديد التخصصات والقطاعات العسكرية والتكنولوجية في العالم.

خامسا: إشكاليات علم المستقبل:

١- التطور الحضاري للأمم لا يسير بطريقة خطية - بافتراض أنه يذهب للأفضل أو للأسوأ على وتيرة واحدة، فأي حدث أو اكتشاف يمكن أن يؤثر على التنبؤات في أي لحظة، مما يستدعي على عالم المستقبل أن يكون في غاية الشمول والترصد والدقة، وهذا مستحيل بالنسبة للقدرات الإنسانية بأن تصيب ١٠٠٪.

٢- هناك تفاوت حضاري في العالم في كافة المستويات، وذلك بسبب الاختلافات الثقافية وتباين الأنساق الاجتماعية التي تحدد سرعة الحراك الثقافي. ناهيك عن الهيمنات والاختلافات في القوى السياسية التي تؤدي إلى أن تكون بعض الدول تابعة. وبما أننا في مرحلة التصورات العالمية لا نستطيع القول إن العالم يتجه لاقتصاد المعرفة مثلا، وفي الآن ذاته إفريقيا لم تصل إلى اليوم للثورة الزراعية، أي أنّ هناك حصرا عند كثير من الأبحاث بشأن ماهيّة العالم، وتخصيص لفظ العالم على بعض الدول ذات المكانة.

سادسا: الحاجة لعلم الاستشراف:

لا يمكن إنكار وظيفة الدراسات الاستشرافية في أي دولة، ولاسيما في الوقت الراهن، بسبب سهولة التنقل والاتصالات الذي أدى إلى «تسارع الأحداث» في كثير من الدول، ففي الماضي بسبب صعوبة التنقل والاتصال كانت مساحة تأثير الأحداث العالمية أقل من اليوم، فاليوم كثر الاحتكاك والمنافسات، والعالم أصبح أقل مساحة يمكن أن يصلنا أي شيء من أي مكان، أكان فكرا أو اختراعا أو دمارا!

من كان ليتوقع أن العالم منذ القرن الـ ٢٠ سيتغير كل هذا التغيير، من حيث تطور العلوم واستغلالها في السياسة، مَن من العرب كان ليتوقع اليوم أن انهيار سوق النفط في أمريكا يمكن أن يؤثّر علينا؟ أو أنّ الصراع بين أمريكا وأفغانستان يؤثر علينا؟ أي لا بد من حسابات أكثر دقة وأكثر شمولية تنبئنا بسبل الحفاظ على «حد البقاء» كأضعف إيمان وسط كل هذه الهيمنات والصراعات، ولتحقيق التنمية ومواكبة التقدم.

سابعا: معوقات الاستشراف:

١- البنية الثقافية: والتي تتكون من الأسس والطبائع التي تحكم الشعوب، وبالتطبيق على مجتمعاتنا، يكمن في خطابات السلبية المبالغة في التوكل ليصبح تواكلا، والاستناد للآيات لتبرير الفشل بالقول: «عسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم»، ناهيك عن استعاضة الحمد والشكر بالطموح والتقدم، وتغليب مبدأ «سد الذرائع عن جلب المصلحة»، وإرجاع كل شيء للقدر وانتظار الدهر لتغييره وتحريم معارضته. كذلك لا ننسى خطاب اعتبار الاستشراف واحتساب المستقبل وتقديم صورة نوعًا من الرجم بالغيب!

٢- البنية المادية: وتكمن في عدم توافر البنية التحتية للاستشراف كمراكز للأبحاث الاستشرافية، وضعف قواعد البيانات الاجتماعية والاقتصادية، وضعف فعالية مراكز الإحصاء ونظم المعلومات، وعدم الاهتمام الإعلامي والتعليمي بهذا المجال.

ibtehaj.i9@gmail.com